مجلة علم النفس . يونيو ١٩٥٠

فى التربية الجنسية *

بقلم

عبده ميخائيل رزق

ماجستير فى الآداب

كثيراً ما يتحدث الآباء عن طفل بدرت منه أسئلة محرجة ، لأنها تشير إلى ما نسميه بالأمور الجنسية ، وكثيراً ما يتهامس الآباء عن فتى أصبح كثير التأنق فى ملبسه أو عن فتاة أصبحت تقف طويلا أمام المرآة . وهم فى مثل هذه الحالات يحارون كيف يوجهون أبناءهم التوجيه الصحيح حتى يأمنوا مواطن الزلل التى قد تعرض مستقبلهم للخطر .

إن مسألة التربية الجنسية ليست وليدة اليوم ولكنها قديمة قدم الإنسان ، وإنما يزداد الاهتمام بها فى عصرنا الحاضر لأننا لا نقنع بالطرق التقليدية فى التربية الجنسية ، بل أصبحنا نشك فيها ونضعها موضع التمحيص . فإذا سألنا طفل صغير « كيف ولدت ؟ » أو « من أين جاء أخى ؟ » فإننا لا نقنع بمجرد انتهاره ؛ وإذا مال شاب إلى ترك البيت أو مالت فتاة إلى الزينة فلسنا نميل إلى تقييدهما بقيود التقاليد الشديدة دون أن نسائل أنفسنا على الأقل عن الحكمة فى كل ذلك . نحن إذن فى دور انتقال من التربية الجنسية الطبيعية إلى التربية الجنسية القائمة على أسس علمية .

إن الجنس هو ما يميز الذكر أو الأنثى . وللجنس خصائصه فى الجسم وفى النفس . فأعضاء الأولاد والبنات على اختلاف . ونفسية الولد تختلف عن نفسية البنت بوجه عام ، من ناحية درجة الحساسية ومقدار الميل إلى المجتمعات

---

* ألقيت فى « المؤتمر التربوى والصحى الأول » الذى نظمته مؤسسة الثقافة الشعبية بدمنهور فى ١٩ أبريل الماضى — وقد عدلت هنا بما يلائم المقام .

والظهور أمام الناس وطريقة الحكم على الأشياء وحتى من ناحية نوع الأخطاء وطرق التخلص منها أو علاجها . ويلاحظ الآباء كثيراً من هذه الفروق بين الأولاد والبنات ابتداء من السنة الأولى من العمر .

والتربية الجنسية وهى جزء لا يتجزأ من التربية بمعناها العام — تهدف إلى إبلاغ كل من الولد والبنت أقصى كمال ممكن فى جنسه ، جسما ونفساً ، وتهدف إلى إبلاغهما معا أقصى حد ممكن من « التكامل » فيما بينهما ، لأن الجنس الواحد لا كيان له بدون الآخر ، وعلى تكامل الجنسين يتوقف استمرار النوع البشرى ورقيه .

فمتى تبدأ التربية الجنسية ؟ أتبدأ فى سن البلوغ حين يصل الفتى والفتاة إلى كمال الوظائف التناسلية وما يصحبه من مميزات جنسية ، أم تبدأ قبل ذلك ؟

فى الحق أن التربية الجنسية تبدأ منذ السنوات الأولى من العمر سواء أردنا أم لم نرد ، وتتأثر على الرغم منا بكثير من الأحداث والظروف المحيطة بالأطفال . فالأطفال الصغار تسترعى انتباههم حوادث الولادة ، ويميزون جنسهم من الجنس الآخر — تعينهم فى ذلك تعبيرات اللغة — وقد تدعوهم تصرفات الأبوين إلى إدراك أن هناك تفضيلا للأولاد على البنات وأحياناً إلى أن هناك علاقة خاصة بين الأبوين . هذا فضلا عما يصل إلى أسماعهم من ألفاظ أو حكايات من أطفال آخرين أو من خدم . ولا ننسى ما قد يتعرض له بعض الأطفال من تجارب جنسية .

فالأطفال منذ نعومة الأظفار بحاجة إلى تربية جنسية قويمة متى أردنا لهم أن يشبوا على الخير وينصرفوا عن الشر .

* * *

ويصطدم الآباء والمربون بعدد من المشكلات فى التربية الجنسية ، ولعل أدلها مسألة « الأسئلة الجنسية » عند الأطفال . وهنا نجد إجماعاً من جمهرة المربين على أن أسئلة الطفل الجنسية ينبغى أن يجاب عليها وينبغى أن تكون الإجابة عليها صحيحة خالية من الأكاذيب والأوهام ، وأن تكون مختصرة بحيث تقنع الطفل من غير أن تثير شكوكه أو مخاوفه . وتحقيق هذه الشروط يحتاج إلى ثقافة خاصة عند الآباء وإلى كياسة وسعة اختبار . فليس يكفى أن يقرأ

شخص كتاباً فى التربية الجنسية ليدعى أنه يحسن التحدث إلى الأطفال فى مثل هذه الأمور .

وتثير التربية الجنسية عند الأطفال مشكلة أخرى ، وهى ما قد يلحظونه من علاقة خاصة بين الأبوين . وتتعقد هذه المشكلة فى الأسر الفقيرة التى يحتاج الأبوان فيها إلى مشاركة الأطفال فى حجرة نومهم . وينصح المجربون من علماء النفس بتخصيص حجرة أو حجرات مستقلة لنوم الأطفال ، وإذا اقتضى الأمر أن تحتفظ الأم فى سريرها بأصغر الأطفال فليكن هذا إلى حين بلوغ هذا الطفل سنته الثالثة أو نحوها . وفى الحق إن اتباع هذه النصيحة يفيد فى تربية الأطفال بوجه عام ، فالطفل الذى يحتفظ بحجرة خاصة تتكون فيه روح الاستقلال وتنمو شخصيته وهو يتمتع بحرية كبيرة فى اللعب والعمل ، دون أن يضايق الآخرين وخاصة الأم ، ويستطيع عن طريق العناية بحجرته أن يتعود تحمل المسئولية .

وتتأثر التربية الجنسية بنوع المعاملة القائمة بين الأبوين على مشهد من الأطفال . فإذا كانت هذه المعاملة قائمة على أساس الاحترام والثقة المتبادلة كان هذا أدعى إلى سلامة التربية ، وكان الأبناء أقدر على تكوين أسر سعيدة فى مستقبل أيامهم ، لأن الأبناء يتمثلون فى الغالب أخلاق الآباء ويحاكونها فى حياتهم .

كذلك لا نستطيع أن نغفل ما قد يتعرض له بعض الصغار من تجارب جنسية نتيجة اتصالهم بالخدم أو تركهم مع غيرهم من الأطفال الذين قد يكبرونهم سناً . ولتلافى هذا الخطر يحتاج الأطفال إلى رقابة متصلة من الأم . ولعلنا نعيب أحياناً على الأم التى تستصحب أطفالها كلما خرجت لقضاء حاجياتها أو لزيارة بعض الأسر أو لحضور حفل أو غير ذلك ، ولكن علينا أن نقدر ما فى هذا الجهد من حماية للأطفال . ولا شك أن المدنية حين تؤدى إلى إضعاف الصلة بين الأم والأطفال تدفع بهؤلاء فى طريق الشقاء من نواح عدة .

وتدفعنا مسألة التجارب الجنسية فى الطفولة إلى أن نتساءل : أمن الحكمة أن نجمع بين الأطفال والبنات فى التعليم أم أن نفصل بين الجنسين ، وإلى أى حد ينبغى أن يكون هذا الفصل ؟

تتأثر التربية الجنسية بنظام المجتمع . والمجتمع المصرى مجتمع محافظ فى عمومه يميل إلى الفصل بين الجنسين . وتحقق إدارة التعليم هذا الفصل فتهيئ مدارس خاصة للبنين وأخرى خاصة للبنات . ويستثنى من هذا الفصل مرحلتان : مرحلة رياض الأطفال والمرحلة الجامعية . ففى الأخيرة يجد الشباب من نضج تفكيرهم وازعاً وهاديا . وفى الأولى وتقع بين الخامسة والثامنة من العمر لا تتنبه الميول الجنسية بل تبقى كامنة فى العادة . وتستطيع الرقابة المدرسية أن تكفل حسن توجيه الصغار . ولا تتوقع أن يبقى المجتمع المصرى ثابتاً على هذه الحال . فقد يتطور فى المستقبل كما تطور فى الماضى . فلا زلنا نذكر مالقيه محمد على الكبير من صعوبة فى سبيل إرسال الفتاة إلى دور العلم . ولا زلنا نذكر ما اعترى زى المرأة من تغير فى هذا القرن وما صحب ذلك من ازدياد حرية المرأة وتقارب الجنسين فى الحياة العامة .

وتختلف الأمم فى إباحة الجمع بين الجنسين فى التعليم أو تحريمه ولكن أكثر الأمم الراقية يجمع مفكروها على ضرورة الفصل بين الجنسين فى دور المراهقة وأول الشباب وهو الدور المقابل للمرحلة الثانوية من التعليم . وهو دور يتميز الناشئون فيه بشدة الحساسية وسرعة التأثر بالانفعالات والعواطف وقلة ضبط النفس مما يجعل فى إباحة الاختلاط أضراراً كثيرة . وليست أضرار الاختلاط هنا جنسية فحسب بل إنها تمس صحة الشباب النفسية وتؤثر فى بناء مستقبلهم . فكم من شاب أدى به الطيش فى هذا الدور إلى ترك الدراسة أو الثورة على الأسرة أو الإلحاح فى طلب الزواج أو فى طلب التوظف أو التنكر للدين ؛ وكثيراً ما يكون هذا أو ذاك عرضاً لمشكلة جنسية .

والفصل بين الجنسين فى دور المراهقة معروف فى الشعوب البدائية التى تقيم للمراهقين الجدد كل سنة أو نحو ذلك حفلات خاصة يؤخذون فيها إلى خارج القرية مع بعض الشيوخ ويحرم على النساء الاقتراب منهم أو محاولة التطلع إليهم ، ويعزلون هكذا زمناً حيث تعمل لهم عملية الختان وتفرض عليهم حياة متقشفة ويدربون على وظائف الرجولة من مختلف نواحيها . فإذا ما عادوا إلى القرية أتموا تدريبهم بمصاحبة الرجال وتهيأت لهم فى بعض الجهات حياة خاصة شبيهة بحياة شباب الأندية فى مجتمعنا الحديث وهى حياة لا يعترف المجتمع فيها بالاختلاط بين الجنسين ؛ وينتقل الشاب من مرحلة العزل

هذه إلى حياة الزواج وتكوين الأسرة . ولا تخلو حياة هذه الشعوب البدائية من حكمة .

على أن الفصل بين الجنسين فى الشعوب البدائية لا يخلق من المشاكل مثلما يخلقه هذا الفصل فى المجتمع الحديث . ذلك أن عزل البدائيين قد لا يعدو بضعة شهور يتخللها تدريب محدود على أعمال الرجولة ثم يعقب ذلك الزواج ؛ فى حين أن شباب المجتمع الحديث تفرض عليه العفة مدة طويلة قد تتجاوز العشر سنوات وذلك إلى أن ينتهى من مرحلة التعليم الطويلة ويجد وظيفة يستقل بها عن الأسرة وينشىء له بيتاً . ولهذا تكثر مشاكل الشاب الحديث وتتنوع ، ومن ذلك ما يلجأ إليه من أساليب ملتوية — لا يقرها المجتمع — إرضاء للميول الجنسية .

وفى مقدمة هذه الأساليب الملتوية ما يعرف « بالعادة السرية » أو ما يسمى بالعربية « جلد عميرة » . وهذه العادة يتناقلها الشباب بسرعة متى لم يجدوا من حولهم شخصاً ناصحا . وتتأثر بها نسبة كبيرة من الشباب مدة تتراوح بين بضعة شهور وسنتين تقريباً من بداية البلوغ ولكنها تستمر مدة أطول عند البعض وخاصة ممن تكثر همومهم فى الحياة ، ويضطرب سيرهم فى الدراسة ، وتمتلىء حياتهم بالوحدة وأحلام اليقظة ، ومطالعة القصص المبتذلة أو الصور الخليعة ؛ فإذا ما عولجت أحوالهم تخلصوا من هذه العادة شيئاً فشيئاً .

وعند بعض الفتيات المحرومات من التوجيه السديد عادة شبيهة بعادة الفتيان هذه ولا تختلف عنها كثيراً فى الأسباب والنتائج وطرق العلاج .

وينصرف عدد من الشباب الذين ضعفت الرقابة عليهم إلى المغازلة والحب مما يصرفهم عن الدراسة ويعرضهم لكثير من أحلام اليقظة ولكثير من المشاكل الاجتماعية فى داخل الأسرة وخارجها ؛ وقد يندمون فيما بعد أشد الندم على سنوات ضيعوها من شبابهم ولو تفرغوا فيها للدرس لأصابوا من الحياة نصيباً طيباً ولبرزوا بين أقرانهم .

ويذهب الأمر بالبعض القليل من الشباب إلى الاندفاع فى طريق الغواية فيمارسون الاتصالات الجنسية ومنهم من يصاب بأمراض خبيثة .

هذه سلسلة من آثار المشكلة الجنسية فى حياة الشباب . وهى ليست

كل ما يتعرضون له ، فإن خاتمة المأساة فى حياة البعض تأتى بعد ذلك فى صورة الزواج الفاشل . ومرجع هذا الفشل غالباً إلى أن الزوج الشاب أو الزوجة الشابة يحب أحدهما أو كل منهما أن يأخذ ولا يعطى ، غير عالم أن الحياة « الزوجية » تآزر وتعاون وتكاتف فى حمل أعباء الحياة ، وأنها ليست متعة كلها ولكن فيها بعض العناء وقدراً من المسئولية .

* * *

والآن ما هى الأسس التى نستطيع أن نقيم عليها تربية جنسية سليمة للناشئين ؟

أول هذه الأسس هى التربية الصحيحة على وجه العموم . فالأطفال المتمتعون بالصحة الجيدة ، المحاطون بالعطف والحب فى داخل الأسرة ، الناجحون فى عملهم المدرسى واليومى يشبون وهم أقدر من غيرهم على معالجة مشكلاتهم الجنسية والتغلب عليها . وتدلنا التجربة على أن الشباب الذين زلوا أمام مسائل الجنس أو استرسلوا فى طريق الغواية كانوا فى الغالب محاطين منذ الصغر بمشكلات عدة كإهمال الوالدين لهم أو سوء معاملتهم إياهم أو تفضيل بعض إخوتهم عليهم أو عدم ملاءمة المدرسة لهم ، أو سوء استخدام وقت الفراغ وقلة الهوايات .

وعلى الآباء أن يتذرعوا بالكياسة فى معالجة مسائل الجنس ؛ فليست القسوة والشدة والانتقام أحسن السبل إلى تجنيب الطفل مشاكل الجنس . وخير الآباء من نجح فى إقامة علاقة مودة وثيقة بينه وبين أبنائه ، ومن كان موضع ثقتهم ومن كان مستعداً لتقديم النصيحة مع العفو عن المخطىء متى أدرك خطأه . ولا ندهش إذا وجدنا شاباً انحرف عن طريق الصواب زمناً طويلا ولم تكن تنقصه غير نصيحة مخلصة .

وليس الآباء فى أى مجتمع بقادرين على إشباع رغبة أبنائهم فى استطلاع مسائل الجنس إشباعاً تاماً . ولهذا يجب أن تتوفر للشباب مكتبة جنسية ، ونحن بحاجة إلى مكتبة جنسية عربية يكتبها مربون خبيرون . ويستطيع الكتاب هنا أن يعالج كثيراً من المسائل فى صراحة لا يقدر عليها المتحدث وخاصة إذا كان هذا هو الأب أو الأم . ومثل هذه الكتب تعالج المسألة الجنسية من

جوانبها المتعددة لكل من الجنسين على حدة . فهى لا تقف عند حد دراسة أعضاء التناسل ووظائفها وأمراضها والوقاية منها أو علاجها بل تتجه إلى دراسة بعض مسائل الشباب الصحية « كحب الشباب » عند الفتيان و « إفرازات العرق » عند الفتيات ، ووسائل التجمل الطبيعية والصناعية وآثارها ؛ وقد تبحث فى مسائل اجتماعية تهم الشباب الناضج كمسائل الخطبة وعلاقة الخطيبين ومسألة الزواج وطرق إسعاده .

وقد فكر المربون فى الغرب فى أن يضيفوا إلى مواد الدراسة مادة خاصة بالتربية الجنسية ، وقد ضج لذلك بعض المحافظين وناصرتهم بعض الصحف . وخير لنا فى مصر أن لا نخطو هذه الخطوة دفعة واحدة ، مادامت لدينا وسائل التدرج الطبيعى ، وأخصها العيادات النفسية والمكتبة الجنسية وتنظيم محاضرات خاصة للشباب بعد الخامسة عشرة ، يتحدث إليهم فيها عن مسائل الجنس معلمون وأطباء من ذوى الخبرة الواسعة بمسائل التربية .

ويحتاج الشباب فى أمور الجنس إلى معاملة فردية ويجب أن يكون بالقرب منهم ناصح مخلص هو فى الغالب واحد من ثلاثة : أحد الأبوين والمدرس والطبيب النفسى فى العيادة السيكولوجية . ونحن إلى الآن لم ننشر بين الآباء والمعلمين من الثقافة ما يعينهم على معالجة مشاكل الشباب الجنسية ، كما أننا لم نتوسع بعد فى إنشاء العيادات السيكولوجية ولم نعطها حظها من العناية .

ولكى نوجه أبناءنا توجيها ملائماً لبلوغ كمالهم الجنسى يجب أن نعمل قبل كل شىء على تنمية روح السلام بين الجنسين . وعلى الأسرة والمدرسة والصحيفة والكتاب أن تعمل كلها متعاونة على خلق روح الاحترام المتبادل بين الجنسين . فليس يتفق مع التربية الجنسية السليمة إشاعة ضعف الثقة بالمرأة عند الرجل أو إشاعة ضعف الثقة بالرجل عند المرأة ، ما دامت الحياة الإنسانية قائمة على نظام الأسرة ، وهو نظام جوهره تعاطف الجنسين .

كذلك ينبغى أن تتعاون مصادر الثقافة كلها على تنمية الروح الخاصة بحماية الأسرة . فليس من الخير تنفير الشباب من الزواج أو تزهيدهم فى إنجاب الأطفال أو فى رعايتهم . وأتعس الأزواج من استقر فى نفسه أن الزواج والأطفال وخدمة الأسرة والبيت هى مصادر للشقاء فى الحياة ، ومن الناس من تشقيهم الأوهام .

ونظراً لارتباط الأم بالبيت أكثر من الأب يجب مضاعفة العناية بتربية الأمومة ، بحيث تعم هذه التربية على جميع الفتيات بالقدر الذى تتحمله البرامج المدرسية حتى فى الدراسات النظرية . وحبذا لو شجعنا هذه التربية بالمباريات والجوائز والحفلات التمثيلية والمهرجانات .

وأخيراً إذا استطعنا أن ننمى فى الناشئين القدرة على تحمل المسئولية والتضحية من أجل الغير فإننا نساعد على خلق جيل سعيد من الآباء والأمهات ينجب جيلا سعيداً من الأطفال .

عبده ميخائيل رزق